C. فينيقيا لبنان، كنعان فلسطين وأمورو سوريا
من ٢٤٠٠ الى ٢٠٠٠

I. فينيقيا لبنان، من ٢٤٠٠ الى ٢٠٠٠

في الوقت الذي كانت فيه مصر وبلاد ما بين النهرين ومنذ عصور سابقة قد حققتا بطريقة مستمرة أو متقطعة وحدتهما السياسية والأرضية وراحتا تهدفان تدريجاً، الأولى والثانية، للخروج من حدودهما وبناء امبراطوريات إقليمية، كان المستطيل السوري، الذي جزأته الطبيعة وتتصارع عليه مطامع جارتيه القويتين، قد ظل يحوي عدداً لا يحصى من المدن والملوك الصغار المستقلين والدول الصغيرة الحجم والقبائل المجهولة. وإن هذه المجموعات المتباينة لم تسع قط لأن تتحد لا قبل العام ٢٠٠٠ ولا بعده، لتشكيل دولة سورية كبرى أو فينيقية كبرى واحدة، على نحو ما فعلت مصر أو بلاد ما بين النهرين.

١ ـ فينيقيا قبل الغزو الأموري (٢٥٠٠ ـ ٢٤٠٠) التوسع البحري للمدن الفينيقية. نفوذ مصر السياسي.

خلال النصف الأول من الألف الثالث، فإن فينيقيا وفلسطين، كما رأينا، كانتا تتجهان إلى مصر، الحليف التقليدي. فمنذ ما قبل العام ٣٠٠٠ كان للاله المصري أوزيريس شعار شجرة من فصيلة الصنوبريات اللبنانية، وكانت بعض فصول أسطورته تجري في جبيل. ومن العام ٣٠٠٠ إلى العام ٢٤٠٠ لم يكف الفراعنة عن إرسال التقدمات إلى معابد مدينة جبيل التي كان ملوكها نوعاً ما من تابعيهم.

لقد أحدث تطور الحياة الاقتصادية والتبادلات التجارية في الألف الثالث توسعاً في النشاط البحري. فصيدون وصور وارواد وأوغاريت، الأحدث عهداً من جبيل نزعت من هذه سيادتها البحرية، وباتصالها مع قبرص ومصر وكريت فسوف توسع هذه المدن مجال ملاحتها المتوسطية وتطلع أهل كريت على حضارة الشرق.

ومنذ القرن الخامس والعشرين ق.م. فإن حركة التوسع هذه جعلت من كريت مركزاً إقتصادياً كبيراً. وبلغ هذا المد البحري الفينيقي مناطق إيجية تشكل محطات بين القارة الشرقية وأوروبا المجهولة. فصار بحارة كريت يتوجهون إلى شمال اليونان سعياً وراء معدن القصدير الذي كان يصلها عن طريق نهر الدانوب. وبفضل فينيقي ذلك العصر، فقد استيقظ العالم الإيجي على الحضارة وتوسعت خارطة العالم المتمدن شيئاً فشيئاً نحو الغرب.

وبالرغم من هذا الانتشار وذلك الازدهار فضلاً عن التأثيرات المتفرقة التي

أثاراها في فينيقيا، ظل دور مصر السياسي مسيطراً فيها. فمملكة الفراعنة، وهي أقرب من بلاد ما بين النهرين بفضل الطريق البحرية وأكثر تحرراً، تمتلك في قلب جبيل نفسها مندوبين يمثلونها ووكلاء لها ووسطاء بل وسفراء. لذا كان نفوذ مصر أو سلطتها يتناوبان في كنعان وعلى شواطىء فينيقيا بالرغم من بعض الارتفاع والانخفاض أو حتى الكسوف الموقت وذلك حتى انهيار القوة المصرية حوالي نهاية الألف الثاني.

إلا أن مدن فينيقيا بحكم دورها كمرافىء أمامية لبلاد ما بين النهرين على المتوسط فهي تقع تحت تأثير النفوذ الإقتصادي والثقافي لبلاد الفرات.

إن المدن الفينيقية، الغيورة على أستقلالها تماماً كما في بدء تاريخها، لم تشكل فيما بينها أية ملكية إتحادية. وقد ظلت هيمنة المدن الكبرى: صيدون وصور وجبيل وارواد وأوغاريت، تجارية أكثر مما هي سياسية، وبحرية أكثر منها برية. فمجالها الحيوي هو البحر.

وأما مصالحها التجارية المطّردة أكثر فأكثر والحاجة إلى الدفاع عنها فقد أملت عليها سياسة خارجية متضامنة ومشتركة. غير أن جبيل بقيت تحتفظ، نظراً لماضيها القديم ودورها كعاصمة دينية، ببعض التفوق على شقيقاتها الصغرى، المدن الساحلية الأخرى.

٢ ـ فينيقيا والغزو الأموري. إضطرابات وأعمال تدمير. مؤسسو سلالات جديدة.

كانت شعوب الساحل اللبناني-الفلسطيني التي تحولت إلى السامية إثر موجة التوسع الكنعانية لعام ٢٩٠٠ واستقرت عرقيا ولغويا نحو منتصف الألف الثالث قد اهتزت من جديد بعد العام ٢٤٠٠ بفعل الغزو الأموري الذي تابعنا تطوره.

ونحن نعرف أن هذه الموجة السامية التي تدفقت على مصر وبلاد ما بين النهرين وأسهمت في هدم المؤسسات والسلالات القائمة فيهما، وصلت أيضاً لبنان وفلسطين. وفي أعقاب فترة من الاضطرابات استتبعت ذلك الغزو، كشفت حفريات جبيل أنه وفي نهاية الألف الثالث كانت هناك في جبيل سلالات جديدة من أصل أموري. بالنسبة إلى سائر مناطق فينيقيا وكنعان فالأصل الأموري للطبقة الحاكمة تؤكده النصوص التي عثر عليها في مصر. وأما في مناطق سورية الداخلية فالغموض لا يزال كاملاً حول وضعها حينذاك.

إن احتلال فينيقيا وكنعان من قبل الأموريين لا يبدو، كما قلنا، أنه تم من غير إحداث هزات عنيفة. فالخراب والدمار اللذان حلاّ بالبلاد من جراء ذلك خير شاهد على قيام معارك ضارية وحروب دموية انتهت بهزيمة لبنانيي ذلك العصر وانهيار بلادهم وحضارتهم. وتحت حكم سلالات وطبقة حاكمة جديدة سيبدأ لبنان القديم مرحلة جديدة من تاريخه. وإن حضارته التاريخية الأولى التي كان عمرها يومذاك حوالي ألف سنة انهارت حوالي القرن الثاني والعشرين ق.م.

«لقد أكدت حفريات بيبلوس وكنعان بوضوح هذا الواقع... ففي بيبلوس غطى حريق كبير المدينة كلها بطبقة كثيفة من الرماد. وبعد ذلك بقليل أعيد بناؤها بحسب تخطيط جديد... فإذا كانت بعض المدن تُبعث من رمادها فإن مدناً أخرى عديدة تنهض على أراض جديدة... كما تظهر مدن جديدة على موقع كان مأهولاً منذ زمن بعيد كأوغاريت شمال الشاطىء السوري... إن هذه الوقائع الأثرية هي شهادات أكيدة على مذابح وأعمال دمار وقعت على البلاد في نهاية هـذا الألف الثالث. فشعوب تحمل السلاح مرت من هنا ونشرت الخراب في هذه الأرض. وتبع ذلك عهد تنظيم مديني كثيف وإنشاء حضارة جديدة على أنقاض الحضارة التي سقطت لتوها...

فمن هو هذا الشعب الذي هدم الحضارة الكنعانيـة الأولى وأنشأ النـظام الجديد؟ إن دراسة الحضارة اللاحقة بعد ترسب الوضع تعطينا بعض الدلائل. فهذه الحضارة الجديدة تألقت في فينيقيا وكان تألقها أقل في فلسطين. في بيبلوس الوثائق غنية ومنوعة بشكل خاص وهي تؤكد على تسلم ملوك،الحكم فيها منذ عهدي أمنمهت الثالث والرابع (١٨٤٩ ـ ١٨٠٠ و١٨٠٠ ـ ١٧٩٢). وأسماء هؤلاء الملوك هي سامية صرف، من نفس تكوين وأصل أسماء الشعوب والملوك الأولين أيام السلالة البابلية الأولى، وهي سلالة من أصل أموري متحدرة من المجموعات القاطنة على ضفاف الفرات الأوسط أو بآخر تحليل على غرار السرجونيين من أهل السهوب العربية. فجزيرة العرب ذلك الخزان العامر بالشعوب السامية من المرجح أن يكون قد زوّد فينيقيا بأسياد كما كانت قد فرضت أسياداً على بلاد ما بين النهرين... وفي أيام أولئك الأمراء رممت تحصينات بيبلوس وعززت، والمدينة تغيرت»[1].

1 M. Dunand, *op. cit., p. 10, 11, 12 et 13.*

٣ ـ فينيقيا تتحرّر من مصر السائرة إلى الانحطاط (٢٤٠٠ ـ ٢٠٠٠)

من العام ٣٣٠٠ إلى العام ٢٤٠٠ لم ينقطع النفوذ أو الهيمنة المصرية على جبيل ـ بيبلوس وفينيقيا بل كان شبه متصل. وإبتداء من العام ٢٤٠٠، كما رأينا، فالعلاقات تغيرت إذ حلت محل الصداقة التقليدية التي كانت تشد البلدين،حالة من التوتر سادت فينيقيا،تجلت بقطع العلاقة بين مصر وفينيقيا ومن ثم بقيام عداء معلن ضد بلاد النيل.

هذا التغيير مرده في أغلب الظن إلى عاملين إثنين: الأول هو الانحطاط الذي أصاب مصر،وتولي طبقة حاكمة جديدة في فينيقيا حملها الغزو الأموري وهي تتصل بصلة نسب مع «الأناس والملوك الأول من سلالة بابل الأولى». إن مؤسسي السلالات الفينيقية الجدد وهم من أنسباء الحكام الأموريين في الفرات، إنضموا إلى سياسة بابل وتحرروا من مصر السائرة إلى الانحطاط.

لقد رأينا أنه وخلال قرنين من الفوضى والاضطراب والغزو الأجنبي اللذين مرّ بهما وادي النيل بعد العام ٢٤٠٠ شهد النفوذ المصري في آسيا تراجعاً كبيراً. ففي بيبلوس الأدلة الأثرية المصرية عديدة حتى العام ٢٤٠٠ ثم زالت تماماً تقريباً بعد ذلك العصر. هذا الواقع إنما يدل على أن العلاقات قد انقطعت بين البلدين وأن مصر المنهارة والمقسمة لم تقم بأي رد فعل على ما يبدو. قد تكون حاولت القيام بذلك بعد العام ٢٢٠٠ وهو العصر الذي تنبئنا الوثائق المصرية أنه وخلاله قام زعماء العديد من القبائل في كل المدن الفينيقية من عسقلان إلى بيبلوس على امتداد الشاطىء اللبناني ـ الفلسطيني بتهديد أمن مصر. وثمة إشارة خاصة إلى «كل آمو الكيباني» أي بيبلوس تعبيراً عن الموقف العدائي لهؤلاء الأصدقاء التقليديين بشكل خاص. ففي مجال السياسة فالضعفاء دائماً على خطأ، وبما أن القوة في تلك المرحلة كان مقرها بابل وبما أن الحكام الفينيقيين هم وحكام الفرات من أصل واحد لذا كان هؤلاء مؤيدين للبابليين تماماً.

٤ ـ فينيقيا تتاود الوقوع تحت هيمنة مصر الناهضة من جديد. بيبلوس تابعة للفراعنة (حوالي ٢٠٠٠)

كان موقف المدن الفينيقية العدائي حيال مصر يضرّ كثيراً بمصالح البلدين. فالنشاط التجاري للمرافىء الفينيقية هو في الحقيقة مكمل للحياة الاقتصادية في وادي النيل. ولم يكن بوسع مرفأ جبيل أن يستمرّ في تجاهل دلتا النيل من غير أن يسيء الى نشاطه. وفي المقابل لم يكن بوسع الدلتا أن تبقى مقطوعة عن هذه المنطقة الحيوية للاقتصاد المصري. لذا ومنذ مجيء الأمبراطورية الوسطى في مصر، سيّرت هذه حملات تأديبية على بلاد كنعان لاستعادة هيبة الفراعنة فيها. وإن السلالة الثانية عشرة التي أعادت النظام والازدهار إلى وادي النيل، أعادت كما رأينا العلاقات التجارية ومعها الهيمنة المصرية على بيبلوس، بعد قرون عدة من القطيعة.

وهكذا وحوالي العام ٢٠٠٠ كانت مشاعر فينيقيا نحو مصر تبدو وقد عادت تسير نحو العودة إلى الصداقة التقليدية. غير أنه وبالرغم من تأثير المصالح الاقتصادية والتجارية كان لا بد من إرسال حملات تأديبية جديدة لإعادة المتردّدين إلى جادة الصواب. فحوالي العام ١٩٧٦، كما قلنا، حضر قائد مصري إلى كنعان وقد «هزم اليونتيو والمنتيو الآسيويين والهريوشا ودك قلاع الخيطا (الحثيين)... ودخل إلى مرافئهم وخرج من غير أن يتصدّى له أحد»[2].

وعلى أثر هذه الحملات العسكرية دخلت فينيقيا وكنعان تماماً في دائرة النفوذ المصري. وراح مبعوثون أو سفراء من قبل الفراعنة يجوبون المنطقة بين جبيل وسورية العليا وبلاط مصر. وعُيّن مستشارون ومراقبون مصريون لدى ملك جبيل. وكان الأمير المصري سنوهت (حوالي ١٩٨٠) المغضوب عليه فرّ من وادي النيل واجتاز أراضي جبيل من غير أن يتوقف فيها لأن حكامها كانوا أوفياء لفرعون. ولدى عودته إلى مصر استقدم سنوهت معه إلى البلاط أناساً من قِدِم (الشرق) وبلاد فنخو (لبنان).

واستعادت التجارة البحرية نشاطها بين مصر وبيبلوس. وسحق الفراعنة محاولات أعمال قرصنة سعت إلى تعكير صفو هذه العلاقات التجارية (حوالي ١٩٣٠). وعادت دلتا النيل مجدداً تصدّر، عن طريق جبيل، المحطة بين كريت واليونان وآسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين، الأواني المصنوعة من الأحجار الصلبة

2 Moret, *Histoire de l'Orient,* I, p. 458.

وأدوات الزينة والعاج فضلاً عن العديد من المنتجات الواردة إليها عن الطريق نفسها.

إن جبيل - بيبلوس، التي كانت قاعدة بحرية مصرية حتى العام ٢٤٠٠ والتي تحرّرت بعد هذا التاريخ لتصبح معادية لمصر تحت إدارة حكامها الأموريين الأوائل، وبضغط من مصالحها الاقتصادية فضلاً عن تحكيم العقل أو الحكمة، اضطرت أن تقع مع حكامها الأموريين مجدداً تحت الهيمنة المصرية.

لقد رأينا أن الهيمنة المصرية المعادة إلى فينيقيا إثر قرون عديدة من الكسوف كانت أولاً سيادة تامة واتخذت شكل الإدارة الاستعمارية أو المباشرة، حيث ارتقى عرش جبيل نواب ملوك مصريون. وكشفت عمليات التنقيب عن الآثار التي أجراها مونتيه ودونان في بيبلوس أنه كان يوجد في تلك الحقبة «مدافن تحت الأرض نصل إليها بواسطة آبار عميقة وذلك على الطريقة المصرية، ونواويس كبيرة من الجص (الحجر الكلسي) تحتوي على توابيت مصنوعة من خشب الأرز وأثاث مدفن جنائزي ثمين مع نقوش بالهيروغليفية المصرية تظهر أسماء أمراء بيبلوس. أحدهم كان مصرياً وهو ابن وزوج امرأة مصرية: إذن قد كان حاكماً أرسله فرعون على الأرجح في مطلع عهد الأمبراطورية الوسطى»[٣].

إن نظام الإدارة المباشرة هذا والمغاير للعادات المتحرّرة التي اتبعتها مصر، يمكن تفسيره بروح الاستقلالية التي كانت تحرك الشعوب الكنعانية والفينيقية منذ تولي الطبقة الحاكمة الأمورية المحبذة لملوك بابل والمعادية لفراعنة مصر. لذا اضطر فراعنة مصر إلى فرض مراقبة مباشرة على هذا البلد المحتل حديثاً والذي كان قد اعتاد الحرية خلال قرون عدة. غير أن الفراعنة سرعان ما أقلعوا عن هذا النظام بعدما ثبت لهم عدم ملاءمته وكلفته الباهظة. وإن السلالة المصرية الثانية عشرة، بعدما استعادت ازدهارها وقوتها وتعلمت من التجارب الماضية وباتت واثقة من نفسها، عادت إلى سياستها المتحرّرة القديمة، فتخلّت عن الإدارة المباشرة لتحل محلها النظام القديم الأقل كلفة والأكثر فعالية وهو نظام التابعية والتحالف.

«خلال النصف الثاني للسلالة الثانية عشرة (حوالي العام ١٩٠٠) لم يعد المدفونون في النواويس من المصريين بل من الأمراء الكنعانيين التابعين للفراعنة وقد نقشت

3 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 461.

أسماؤهم السامية بالهيروغليفية بشكل سيء على يد فناني نقش محليين»[4]. إن اثنين من هؤلاء الأمراء من الجبيليين وهما إيبشيمواب وابنه إيبشيمو وكلاهما يحمل اسماً من أصل أموري. وتشير نوعية والغنى الفني للهدايا الفرعونية التي وجدت في ضريحهما فضلاً عن الألقاب المحفورة عليها من قبل الفرعون إلى أن فراعنة ذلك العصر كانوا يعتبرون أمراء بيبلوس كملوك محليين، وأن ملوك جبيل بين العام ١٨٥٠ و١٨٠٠ كانوا يحكمون بلدهم كملوك تابعين لفرعون مصر. فهذه، كما يفسر موريه «وصاية كان الفراعنة ينوون إبقاءها في جبيل وليست غزواً، وذلك للاحتفاظ بقاعدة بحرية فيها للتبادل التجاري تكون قليلة الكلفة. . . وهو تبادل كانت مصر تحرص عليه كثيراً مع سورية منذ عهد المملكة الثينيسية»[5].

٥ ـ البيئة الثقافية والفنية في فينيقيا

بدأ الفينيقيون المتحرّرون من الوصاية المصرية، وخلال فترة استقلالهم وهي الحقبة الممتدة من انحطاط الأمبراطورية القديمة (حوالي العام ٢٤٠٠)، حتى إعادة الهيمنة المصرية (حوالي العام ٢٠٠٠)، وتحت حكم سلالات جديدة من أصل سامي ـ أموري، حضارة أكثر عالمية غير أنها كانت دائماً متفردة.

فمنذ اختراع الكتابة حوالي العام ٣٢٠٠ ظل الفينيقيون، برغم انتشار اللغة الأكادية كلغة دولية، محافظين بحرص على لغتهم السامية أي الكنعانية ـ الفينيقية واستعاروا الكتابة الهيروغليفية المصرية ــ وليس الكتابة المسمارية السامية ـ الأكادية ــ لكتابة لغتهم الخاصة. وبعد العام ٢٢٠٠ وخلال فترة الاستقلال والازدهار التي استتبعت الغزو الأموري وتحت ضغط محتمل من جانب خصوصية إقليمية وقومية ناشئة، تخلّى الفينيقيون عن الكتابة الهيروغليفية المصرية واستعاضوا عنها بهيروغليفية فينيقية خاصة بهم كانوا قد اخترعوها منذ فترة قصيرة. وهذه الكتابة الجديدة التي يطلق عليها السيد دونان «الهيروغليفية الزائفة» سوف تأتي بأخرى. إذ وخلال تلك المرحلة التي لم يكن فيها الفينيقيون راضين عن اختراعهم هذا بدأوا أولى محاولاتهم لاختراع الأبجدية وثابروا على تلك المحاولات خلال قرون عدة حتى تمكنوا في القرن السابع عشر ق.م. من اختراع الأبجدية الفينيقية أو الأبجدية وحسب والتي كانت السلف المباشر لكل الأبجديات المعاصرة تقريباً.

4 Moret, *Histoire de l'Orient*,I, p. 461.
5 Moret, *L'Egypte pharaonique*, p. 263.

إن التأثيرات الاقتصادية والسياسية والثقافية المتفرقة التي كانت تتلاقى في فينيقيا في ذلك العصر جعلت لغات غريبة عديدة، مألوفة لدى السكان وعلى الأخص الأكادية والمصرية. حتى أن الأكادية (البابلية العتيدة) كانت تعلم في مدارس بيبلوس، كما تشهد على ذلك لوحة مسمارية تعود إلى ما بين ٢٣٠٠ و٢٢٠٠. فمنذ تلك العصور البعيدة، كما نرى، فإن ظاهرة تعدّد اللغات التي يتصف بها اليوم كما كان بالأمس، هو إحدى ميزات سكان هذا الساحل اللبناني ـ السوري.

إن الحضارة الفينيقية الجديدة، التي تلت الغزو الأموري وتأسيس نظام الإستقلال، تجلت بتألق بعد العام ٢٠٠٠ برغم عودة الهيمنة المصرية. فملوك جبيل الذين تشهد أسماؤهم على الأصل الأموري غيروا شكل عاصمتهم، ورمموا أسوارها ودعموها «وأعادوا بشكل خاص بناء المعابد القومية الكبرى لحاتور وهرشف. وقد عثر في تلك المعابد على تحف رائعة في فن الصياغة تنم عن إزدهار هذا البلد. وحوالي ذلك العصر نفسه، وبعدما أعاد فراعنة السلالة الثانية عشرة السيادة الملكية، عاد وادي النيل ليشع من جديد بكل بريقه. وكان يحلو لملوك جبيل أن يقلّدوا عادات مصر. فكانوا يتزيّون بأزيائهم وينقشون أسماءهم بالمصرية في إطار مزخرف ويحفرون قبورهم في قاع بئر عميقة.

وأخذت كنوز آسيا تتدفق على مصر. وبالمقابل كانت معابد قطنة وأوغاريت تثرى بالتقدمات وبخاصة هبات الأميرتين أيتا وخنوميت المتوجة حسناً، وهما ابنتا الفرعون أمنمهت الثاني (١٩٣٨ ـ ١٩٠٧). وكانت بيروت قد زودت بأبي هول وربما بورقة زهرة عليها إطار مزخرف نقش في داخله اسم أمنمهت الرابع (١٨٠٠ ـ ١٧٩٢). وكان ملوك بيبلوس يحملون معهم إلى قبورهم أدوات الزينة والأغراض الثمينة التي كرمهم بها الفراعنة»[٦].

«إن فن بيبلوس، يقول موريه، يقدم لنا وحوالي العام ١٨٠٠ المظهر المركّب الذي كان عليه فن فينيقيا في الألف الأول». والهدايا المصرية فضلاً عن الأشياء المكتشفة في معبد يعود إلى عصر الأمبراطورية الوسطى والتي كشفتها حفريات مونتيه ودونان هي معبرة جداً في هذا المجال: «أشياء برونزية صغيرة مصرية من أيام الأمبراطورية الوسطى وخنافس على شاكلة النماذج المصرية ولكنها مزينة بلوالب إيجية وحبكات سورية وثلاث أسطوانات من النوع الكبادوكي تشهد على النفوذ

6 M. Dunand, *Byblia Grammata*, p. 13 et 14.

الآسياني. . . وأوان من الخزف وأخرى من الفضة. . . من الطراز السومري. . . ومصنوعات فخارية كثيرة من الحضارة الكنعانية القديمة الثانية والكنعانية الوسطى مما يمثل الصناعة المحلية. ووجدت شوكات ثلاثية الرؤوس من البرونز وسكين فضي عليه نقوش. . . تشهد أيضاً على واردات من إيجه وسومر كانت تعرض على فنيي بيبلوس كنماذج منافسة للنماذج المصرية.

وبالرغم من التأثيرات المتفرقة التي كانت تتلاقى في جبيل، بقي التفوق السياسي دائماً لمصر. فالمشايخ المحليون يعاملون من جانب الفراعنة كخبراء في العبادات الأوزيرية، وليس هذا بمستغرب في بلد كان أوزيريس وإيزيس يعبدان فيه إلى جانب أدونيس.

وقد تم العثور أخيراً في السوق التجارية في بيروت على صديري أو قطعة زينة تلبس على الصدر من ذهب حفر عليها رسم الفرعون أمنمهت الثاني وهو طفل (١٩٣٨ ـ ١٩٠٧) ترضعه البقرة هاتور: تكريم لسيدة بيبلوس، إيزيس ـ هاتور مصر التي تعتبر أم الفراعنة. وما من شك في أن هذه التميمة الرائعة كانت هدية موجهة إلى أحد أمراء بيبلوس. وأما طرازها ففيه من الكمالية ما يذكرنا بجواهر دهشور. فهدايا الفراعنة تلك كانت تخرج من المحترفات نفسها التي كانت تزود أسرة الفرعون أمنمهت الثالث»[٧].

كما أن اكتشافات أخرى تؤكد وتحدّد أن منطقة العمل المصرية السياسية والاقتصادية معاً، كانت تمتد حتى الحوض الأوسط لنهر العاصي وإلى الحدود الشمالية لبلاد فينيقيا. كما تم العثور على أبي هول عليه اسم الفرعون أمنمهت الثالث وتمثال للأميرة خنمت ابنة أمنمهت الثاني المعاصرين لتلك الحقبة في موقع أوغاريت (رأس شمرا) الفينيقي.

وفي مطلع هذا الألف الثاني تذكر مخطوطات البابيروس المصرية أن الأخشاب والزيوت كانت تستورد من لبنان. وقد غزت الحضارة المصرية فينيقيا إلى درجة أن هذه تبنت استعمال التحنيط.

7 Moret, *Histoire de l'Orient,* I, p. 460, 461, 462.

II. كنعان فلسطين وأمورو سورية
من العام ٢٤٠٠ إلى العام ١٨٠٠

أفسحت الهجرة الكنعانية العام ٢٩٠٠، والتي أسست المدن الفينيقية، لساميي بلاد ما بين النهرين بأن يشيدوا أمبراطورية أغاده، والتي يبدو بعد استقرارها في سورية وفلسطين أنها هدأت في هاتين المنطقتين. فكنعانيو فلسطين وأموريو سورية، أخوة فينيقيي لبنان وأكاديي الفرات، وبعدما توزعوا في مختلف المناطق السورية-الفلسطينية انطووا على أنفسهم. وإثر الانتشار الأموري العام ٢٤٠٠ ومع أنه خرج من سورية فإن السكان السوريين ـ الفلسطينيين يبدو أنهم تابعوا حياة غامضة هادئة.

وهكذا فإن النوعين الكبيرين الإقليميين في الممر السوري-الفلسطيني أي الجزء الغربي والبحري الممتد بين الجبل والبحر والجزء الشرقي والقاري الممتد على حدود الصحراء كانا دائماً مركزاً لنشاطين مختلفين واقتصادين مختلفين وتالياً لحضارتين متميّزتين.

على الشريط الساحلي الطويل الممتد من غزة حتى خليج الإسكندرون تطورت سلسلة من المدن والمرافىء خلال الألف الثالث. في طليعتها جبيل منذ الألف الرابع ثم صيدون وصور وإرواد وأوغاريت خلال الألف الثالث، وكانت كلها نشطة ومزدهرة. وكانت تحتل منذ ذلك التاريخ على مسرح العالم الأول الشرقي التاريخي دوراً من الدرجة الأولى. وفي المقابل وعلى الشريط القاري أو الداخلي وأسوة بكل داخل البلاد كان غموض شديد ومطبق لا يزال مخيماً.

غير أن مدن الداخل وهي حلب وحمص وتدمر ودمشق وبترا العتيدة والمجاورة للصحراء والتي تشكل مرافئها الطبيعية، كانت على الأرجح، وحوالي تلك العصور البعيدة على اتصال بالمرافىء البحرية المتوئمة لها. وتالياً علينا أن نفترض بأنها كانت

تلعب دوراً ما على الأقل في ميدان النشاط التجاري البري. لكن لا يوجد أي وثيقة حتى الآن تنيرنا عن تطور تلك المدن المتفرقة التي يجب أن تكون بمثل قدم أخواتها مدن الساحل. ولربّ أن حفريات لو نفذت في باطن الأرض تحت دمشق أو حلب ستلقي الضوء يوماً على التاريخ الأقدم لمرافىء الصحراء هذه.

١ ـ التسمية والحدود الجغرافية لسورية وفلسطين القديمتين

رأينا الأسماء القديمة لما قبل فينيقيا أو لبنان العتيد ومنذ أقدم العصور، وسنرى الآن الأسماء الجغرافية لسورية الداخلية وفلسطين والتي كان تطورهما التاريخي لاحقاً بتطور البلد اللبناني العتيد.

ويمكننا من المصادر المصرية أن نستعلم بعض الشيء عن المنطقة الفلسطينية في حين تفيدنا معلومات بلاد ما بين النهرين، باختصار على أي حال، عن الوسط والشمال السوريين في الألفين الثالث والثاني.

أ ـ أمورو أو سورية العليا

تسمّى سورية العليا أو الشمالية في جغرافية بلاد ما بين النهرين في الألفين الثاني والثالث أمورو وهي كلمة سامية تعني الغرب. وقد استخدم الساميون الأكاديون في بلاد ما بين النهرين هذا الاسم للدلالة على البلاد الواقعة غرب بلادهم من الفرات أو بالأصح من دجلة وحتى نهر العاصي بما فيه الصحراء السورية. وقبل الأكاديين كان السومريون قد أعطوا هذه المنطقة نفسها أيضاً إسماً مشابهاً: مارتو ويعني بالضبط: الغرب. فسورية العليا إذن هي بالنسبة إلى سكان بلاد ما بين النهرين الغرب أو بلاد الغرب[٨].

ب ـ كنعان أو فلسطين

بالنسبة إلى أهالي بلاد ما بين النهرين في الألف الثاني، كما رأينا، فإن كنعان هي «البلاد المنخفضة» وتضم أصلاً شواطىء فلسطين وسهولها فضلاً عن الساحل اللبناني أو فينيقيا العتيدة. فالتقليد الإسرائيلي في نهاية الألف الثاني، يحدد بلاد كنعان بكنعان التقليدي والتوراتي أي بفلسطين فقط.

(٨) إن ساميين آخرين هم العرب، سوف يسمون لاحقاً، افريقيا الشمالية باسم مماثل: المغرب.

ج ـ التحديد الجغرافي لأمورو وكنعان

إن إسمي منطقتي كنعان وأمورو إستخدما في تحديد المجتاحين، الذين جاءت بهم الموجة السامية العام ٢٩٠٠. فمن استقر منهم في كنعان أو البلاد المسطحة (السهول الفلسطينية والشواطىء اللبنانية) سموا بالكنعانيين، في حين أن من استقروا منهم في أمورو (سورية) فكانوا الأموريين أو الغربيين.

وبالرغم من أن اسم أمورو أو غرب يدل على موقع جغرافي نسبة إلى بلد أجنبي فإنه سيظل مقترناً بمناطق وشعوب سورية الشمالية والداخلية وهؤلاء سيطلق عليهم اسم أموريين وهو ما يعرفون به في التاريخ القديم. وإذا كان هذا الاسم يبدو أحياناً بأنه يمتد إلى كل أراضي سورية الجغرافية إلا أن الشعب الأموري كان دائماً محصوراً في بعض مناطق هذه المساحة. وإن بعض المجموعات الأمورية بعد أن ملأت الأجزاء الشمالية والوسطى من سورية، تابعت تقدمها حتى سورية الجنوبية أو فلسطين.

وكان أهالي بلاد ما بين النهرين والمصريون والحثيون والإسرائيليون وكذلك السكان الأصليون يحددون أمورو بحسب مساحات مختلفة وحدود غير معينة. ومن مجمل معلوماتهم يمكن الاستنتاج بشكل عام، أن البقاع ووادي العاصي وسهل دمشق والسهوب السورية وهضاب شرق الأردن والجبل الفلسطيني هي نطاق الأموريين في حين أن الشاطىء السوري-اللبناني وسهل الجليل ووادي الأردن تحمل اسم بلاد كنعان وسكانها هم الكنعانيون.

وهكذا إذن ومنذ الألف الثالث كانت سورية الجغرافية المسماة أحياناً باسم أمورو الشامل، أو الغرب تتألف من مجموعتين جغرافيتين كبيرتين: بلاد أمورو أو سورية بحد ذاتها وبلاد كنعان أي فلسطين ولبنان. وإن المجموعات البشرية التي تسكنهما هي، كما رأينا، شعبان شقيقان: الأموري والكنعاني متحدران من موجة سامية واحدة. غير أن الظروف الجغرافية هي التي طورت لدى كل منهما مؤهلات وعادات مختلفة ووجهت مصائرهما وتاريخهما باتجاهات مختلفة.

٢ ـ لغات المناطق السورية وكتاباتها في الألف الثالث

أ ـ اللغة الأمورية

إننا نجهل حتى اليوم لغات السكان السوريين في العصر الذي سبق تعولهم إلى السامية (في نهاية الألف الرابع). بيد أنه يمكننا التأكيد بأن تلك اللغات وعلى غرار السكان أنفسهم لم تكن سامية. فمتوسطيو وآسيانيو سورية، وهم خلف النيوليتيين الاصليين المتجاورين أو الممتزجين، كانوا يتحدثون بلغات أصيلة متوسطية أو آسيانية، وفي أي حال، غير سامية. وبما أننا لا نملك أية نقوش بتلك اللغات في الفترة الإنتقالية للتاريخ، فكل شيء يدل على أن السكان السابقين للساميين في تلك المناطق لم يعرفوا أو يستخدموا أية كتابة لتثبيت لغتهم العامية. لذا فالأمل ضئيل بالتوصل يوماً إلى تحديد تلك اللغات المنقرضة.

وبعد تحول المناطق السورية إلى السامية، فإن الوسط اللغوي أخذ يتحدد بوضوح أكبر. وإن اللغات أو العاميات التي ظهرت في الألف الثالث هي لغات سامية مشتقة من جذع مشترك. فهي من جهة اللغة الكنعانية (الفينيقية والعبرانية المقبلتان) في لبنان وفلسطين، ومن جهة أخرى الأمورية في سورية بحد ذاتها أو أمورو. وبالرغم من تحدر هاتين اللغتين من اللغة السامية الأصلية نفسها وهي لغة القبائل التي تدفقت على البلاد مع الموجة الحاصلة العام ٢٩٠٠ فإن هاتين العاميتين الشقيقتين وحوالي آخر الألف الثالث باتتا على تغير ظاهر إلى حد أنهما تنطبقان على مجموعتين جغرافيتين وعرقيتين متميزتين.

ونحن لا نعلم ما إذا كانت اللغات غير السامية البدائية أي لغات السكان المتوسطين والآسيانيين السابقين للساميين، كانت لا تزال تستخدم في نهاية الألف الثالث في بعض المناطق المنعزلة ومن قبل بعض القبائل التي يعصى تطبيعها.

إن أول لغة معروفة في مناطق سورية بحد ذاتها هي إذن اللغة الأمورية. وبالرغم من أنها ظلت لغة محكية لفترة تناهز الألفي سنة أي خلال الألفين الثاني والثالث إلا أن اللغة الأمورية معروفة بدرجة أقل من شقيقتيها الفينيقية والكنعانية. وسوف تختفي من غير أن تترك أي أثر تقريباً أمام لغة الساميين الآراميين الذين إنتشروا في الهلال الخصيب حوالي منتصف الألف الثاني. أما اللغتان الفينيقية والكنعانية فقد صمدتا حتى منتصف الألف الأول. وفي حين أخذت الموجة الآرامية تحول سورية إلى الآرامية لاحقاً فإن الموجة المعاصرة لها وهي موجة الخابيرو التي

إستقرت في كنعان ستعتمد اللغة المحلية أو الكنعانية التي ستعرف لاحقاً بالعبرية.

وختاماً فإن اللغة السامية لمجتاحي العام ٢٩٠٠ والذين ينتمون على ما يظهر إلى موجة قبائل واحدة قد أعطت لغات عدة تنسجم مع المناطق السورية المختلفة وأهمها: الكنعانية والأمورية. وإن الكنعانية ستقسم لاحقاً إلى فينيقية في الشمال وعبرية في الجنوب. وإن الفوارق التي تميز هذه اللغات بعضها عن بعض كما تميزها عن أكادية بلاد ما بين النهرين هي نتيجة التطور التاريخي لتلك المجموعات الشقيقة المتفرقة، المستقرة في مناطق أو نواحي مختلفة جغرافياً.

ب ـ الكتابة الأمورية

وعجباً كيف أن اللغة الأمورية التي كانت متداولة في الألفين الثاني والثالث، أي في عصور كانت فيها الكتابتان المسمارية والهيروغليفية معروفتين ومستخدمتين منذ قرون عدة، في بلاد ما بين النهرين ومصر وفينيقيا لم تترك أية آثار منقوشة. فهل هذا يعني أن السكان الأموريين او السوريين، في تلك الأزمنة القديمة، كانوا لا يزالون يجهلون الكتابة حتى في الألف الثاني؟ إنه للغز حقاً. ومهما يكن فإن هذا الواقع يعزز ما نعرفه على أي حال من إنصراف السكان السوريين في تلك العصور القديمة إلى الزراعة ورعاية المواشي، وقد كانوا ما يزالون متأخرين نسبة إلى سكان بلاد ما بين النهرين ومصر وفينيقيا. وقد رأينا أن أقرباءهم وجيرانهم على الشاطىء اللبناني الذين إستخدموا الكتابة الهيروغليفية المصرية منذ مطلع الألف الثالث لكتابة لغتهم الخاصة عادوا وإخترعوا حوالي العام ٢٢٠٠ كتابة شبه هيروغليفية خاصة بهم قادتهم في النصف الأول من الألف الثاني إلى إختراع الحروف الأبجدية الأولى.

إن اللغة الأمورية هي إذن لغة عامية أو تخاطب، وحتى إثبات العكس لا يبدو أنها كانت مستخدمة كلغة مكتوبة. إذ وحتى اليوم لم نمدنا أي وثيقة بنموذج مكتوب من تلك اللغة السامية السورية الأولى. لذا فإن علماء اللغة والآثار لم يتمكنوا من تمييزها، وبشكل جزئي للغاية، إلا من الآثار المتبقية في اللغتين الأكادية والعبرية وبخاصة اللغة الأرامية التي خلفتها في سورية.

ولتوضيح هذا الواقع الذي يبدو غريباً بعض الشيء، أورد عدد من المستشرقين فرضية معقولة، مفادها أن بلاد أمورو كانت تدور في فلك بلاد بابل منذ أقدم العصور، وأن هيمنة بلاد ما بين النهرين هذه، كان لها بالتأكيد عواقب على الثقافة الفكرية للأموريين وحضارتهم. فهؤلاء، وهم من أصل سامي، كالأكاديين

والبابليين، قد يكونون إقتبسوا اللغة والكتابة الأكادية أو البابلية، اللتين كانتا لغتي السياسة والتجارة. فالطبقات الحاكمة والمثقفة والتجار والكتبة قد إستخدموا اللغة والكتابة الأكادية، في حين أن الجماهير الأمية والمتأخرة ثابرت على إستخدام الأمورية كلغة محكية.

ونحن نعرف من جهة أخرى من رسائل تل العمارنة المدونة بين العام ١٤٠٠ والعام ١٣٥٠ أن اللغة البابلية كانت ما تزال مستخدمة حوالي ذلك العصر كلغة دبلوماسية في المراسلات بين الملوك الأجانب. إن تلك الرسائل عثر عليها في مدينةفي مصر العليا كانت في زمن تحرير تلك الرسائل عاصمة للفراعنة، وهي صادرة عن أمراء فينيقيين وسوريين شماليين وملوك أشور وبابل وبعض أمراء آسيا الصغرى. إن هذه الرسائل الموجهة إلى الفراعنة (وعددها خمس وأربعون رسالة)، والمؤلفة من سلسلة من اللوحات المكتوبة باللغة البابلية ورموز مسمارية صادرة، وهذا له دلالة خاصة، عن أمراء تابعين لملك مصر وحتى موظفين مصريين أو مندوبين للفراعنة معينين من قبل هؤلاء لدى ملوك كنعان وأمورو.

إن رسائل تل العمارنة تؤكد إذن فرضية الطابع الدبلوماسي والعالمي للغة البابلية حتى في منتصف الألف الثاني، أي في عصر كانت فيه الهيمنة والنفوذ السياسيان والعسكريان لأمبراطورية بابل قد زالا منذ أمد طويل. فكل شيء يدعو إلى الإعتقاد إذن بأنه وفي نهاية الألف الثالث، وهو عصر تألق بابل، كان الطابع العالمي للغة البابلية أقوى من ذلك بكثير.

وبإختصار فإن الطبقات الحاكمة والمتطورة في المناطق السورية قد إستخدمت اللغة البابلية في حين أن الجماهير الشعبية إستمرت في التخاطب بلغتها القومية أي اللغة الأمورية. وسنرى لاحقاً هذه الظاهرة نفسها تحصل أيام السيطرة اليونانية ـ الرومانية. إذ وفي حين كانت الطبقات المثقفة في سورية تتكلم وتكتب باليونانية، كانت الجماهير الشعبية تثابر على إستخدام الأرامية التي خلفت اللغة الأمورية. ولكن وفي العصر الهلليني (إثر موت الإسكندر) فإن الكتابة وبخاصة الكتابة الأبجدية، كانت جد منتشرة يومها لتثبيت اللغة الأرامية وحفظها.

٣ ـ الحياة والتنظيم الإجتماعيان في الألف الثالث في فلسطين وسورية الداخلية.

إن فلسطين وسورية الداخلية في الألف الثالث لا تزالان شبه مجهولتين. فالمعلومات الضئيلة التي نملكها عنهما تظهر لنا سكان تلك المناطق عائشين في الحالة النيوليتية ومكونين لقبائل وشعوب أصيلة ومجهولة. وبدءاً من العام ٢٥٠٠ يبدو أن فلسطين الغربية عرفت الزراعة وأيضاً بعض التنظيم المديني. وأما سورية الداخلية فلا نعرف شيئا عن سكانها حتى الآن.

«إن بلاد كنعان في الألف الثالث غير معروفة تماماً... إنها تظهر قرابة من حيث العرق والحضارة مع ساميي سورية وبلاد ما بين النهرين... وخلال النصف الأول من الألف الثالث تبدو كنعان متأخرة بالمقارنة مع بلاد ما بين النهرين ومصر... فالأدوات الصخرية والصوانية وصناعة الخزف غير المتقنة تنتسب إلى شعب لا يزال في الطور الإنيوليتي. إن بعض الكهوف ذات الإستخدام الجماعي تدل على تنظيم بدائي»[9]. وحوالي العام ٢٥٠٠ فإن محفورات مصرية تصف الوضع الإجتماعي والسياسي للمنطقة الفلسطينية، تظهر لنا بحسب ما يذكر موريه «شعباً مستقراً من المزارعين تحميهم مدن حصينة، ولكنه مقسم ويفتقر إلى وحدة أرضية وسياسية».

وأما في النصف الثاني من الألف الثالث فإن فلسطين وسورية ما تزالان مجزأتين ومحط مطامع بلاد ما بين النهرين كالسابق. لكن هذه المطامع يتصدى لها العمل الدبلوماسي أو العسكري للفراعنة. إن مبعوثي ووكلاء وسفراء هؤلاء يدخلون حتى ضفاف الفرات. وأما صغار الملوك والأمراء والمشايخ المحليون والمتقلبون في ولائهم باستمرار بين هاتين القوتين، فإنهم يخضعون تارةً لمصر وطوراً لبلاد ما بين النهرين بحسب مصالحهم الآنية ومنافساتهم الداخلية وقوة ونفوذ الدولتين العظميين المجاورتين. كما أن الهدايا والمال تلعب أيضاً دورها الأزلي في هذه المنافسات.

إن قرني الإنحطاط والفوضى (٢٣٦٠ ـ ٢١٦٠) اللذين أعقبا الغزو الأموري والثورة السياسية والإجتماعية في مصر، كان لهما ردة فعل محتومة، كما رأينا، تمثلت

9 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 358.

بتراجع النفوذ المصري في آسيا لصالح نفوذ ملوك بلاد ما بين النهرين. يومها ظهرت عداوة معلنة لمصر من جانب كل ملوك الساحل الفلسطيني-اللبناني الصغار وحتى شعب آمو من سكان جبيل - بيبلوس، الحليف القديم للفراعنة ويرجح أن تكون تلك العداوة أثيرت من قبل ملوك بلاد ما بين النهرين.

إن وثائق مصرية تعود إلى العام ٢٣٥٠ تقريباً تؤكد هذا الواقع وتعدد، كما قلنا سابقاً، أسماء البلدان والشعوب الذين «وعلى إمتداد الشاطىء الكنعاني... كانوا يهددون أمن مصر. ومن بين أسماء البلدان والناس،أسماء سامية وأخرى آسيانية أو حورية أو من لغات غير محددة: وهذا يبرز مزيجاً من السكان الذين إختلطوا في بلاد كنعان بفعل الهجرات الجارية»[10]. وهناك محفورة مصرية أخرى تشير إلى وجود قلاع حثية في كنعان - فلسطين حوالي العام ٢٠٠٠. هنا، في هذه المنطقة وحوالي ذلك العصر سوف يلتقي عبرانيو إبراهيم حثيين بين الكنعانيين.

وحوالي العام ٢٠٠٠ فإن السلالة الثانية عشرة التي أعادت إلى مصر عظمتها وقوتها أعادت الهيمنة المصرية إلى جبيل - بيبلوس أيضاً. في ذلك العصر أيضاً حصل التجوال الذي قام به الأمير الملكي المصري سينوهت الذي فر من البلاط الفرعوني متجهاً إلى الشمال. وتروي لنا بردية (مخطوطة ذلك الزمان) أدبية مصرية، قصة تلك الجولة وتصف المغامرات التي عاشها هذا السليل الملكي الذي إجتاز فلسطين ولبنان وسورية الداخلية،وإستقر في ضيافة ملك صغير في شمال سورية هو شيخ (حقا) ريزينو العليا. ويحدد موريه وهروزني مكان ذلك البلد بأنه في سورية الشمالية بين العاصي والفرات. وبفضل رواية سينوهت بوسعنا أن نكوّن فكرة عن الحياة والتنظيم الإجتماعيين للشعوب ما قبل السورية في نهاية الألف الثالث.

«إن الوصف الذي يقدمه لنا سينوهت عن ريزينو ثمين لأن أي مصدر آخر لا يصف لنا في ذلك العصر «أرض اللبن والعسل» هذه حيث نتميز حقول القمح والبساتين والكروم ومراعي العاصي وحدائقه والسهوب الملأى بالطرائد في نهارينا (بين نهري العاصي. والفرات). وإن القبائل (اوهيت) التي تعيش هناك تحت الخيام هي نصف بدوية ونصف حضرية. وكل واحدة يتزعمها شيخها (حقا) الذي يعترف بسيادة شيخ ريزينو المطلقة. وبعدما تزوج سينوهت إبنة هذا الأمير كان يتسلم قيادة جيوشه وأبطاله (نختو) كل مرة يقوم فيها الستيو (بدو ما بين النهرين)... بمهاجمة

10 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 457.

مشايخ تلك البلاد ويمعنون في: سلب الحصاد وغزو القطعان والناس وتدمير الخيام والمنشآت المحصنة، والمبارزات مع أبطال أو أقوياء القرية، وتلك هي مآثر زعيم القبيلة. وتخبرنا القصة أن مبعوثين (نكاد نقول سفراء) يتجولون بين ريزينو وبلاط مصر. هناك مصريون في معية الأمير، وسينوهت ينوي تكلم لغة بلاده معهم. وأحياناً يستعلم أمير ريزينو حول سياسة فرعون حيال آسيا الدنيا هذه، فيجيبه سينوهت: «إنه سيحتل أراضي الجنوب (النوبة) لكنه لا يفكر ببلدان الشمال بالرغم من أنه وُلد ليحكم الستيو ويسحق بدو الرمال. ثم يُستدعى سينوهت أخيراً إلى مصر برسالة متسامحة موجهة إليه من فرعون. فيستقدم معه إلى البلاط الملكي أناساً من القِدِم (أي الشرق) وبلاد فنخو ويصفهم: إنهم مشايخ أصيلون تربوا في حب شمسكم (كا) التي لا تنسى؛ فبلاد ريزينو هي لك ككلابك. ويضيف موريه: إن هؤلاء الفنخو هم على الأرجح الساميون-الكنعانيون الذين سماهم اليونانيون فيما بعد فينيقيين والذين يحتلون مرافىء كنعان»[11].

يبدو أن الحياة والتنظيم الإجتماعيين كانا هكذا في المناطق السورية حوالي العام ٢٠٠٠ خارج المراكز التجارية الكبرى. ويتضح لنا من قصة سينوهت أن رئيس قبيلة إستضافه في كنعان بعد خروجه من مصر، وأنه إنتقل من قافلة إلى قافلة ومن بلد إلى بلد مجتازاً فلسطين ومستديراً حول بيبلوس المخلصة لفرعون، متجهاً نحو الشرق.

فلنقفز الآن أربعة آلاف سنة إلى الأمام، ولنلق نظرة اليوم على هذه الأماكن نفسها من الجزيرة والتخوم الصحراوية في سورية وبلاد ما بين النهرين: فإننا نجد تقريباً نمط الحياة الإجتماعية إياها والتنظيم الأبوي والقبلي نفسه لدى القبائل البدوية الرُحّل أو شبه الرُحّل منها وفي التجمعات الزراعية. وحدها المدن الكبرى حيث تسود التجارة والتي أصبح سكانها من الحضر منذ عهد بعيد تعرف في أيامنا هذه تنظيماً إجتماعياً مدينياً أكثر منه أبوياً.

٤ ـ الإنتشار المصري في ريزينو أو سورية الشمالية

أ ـ مغامرة سينوهت: هل كانت هرباً أم مهمة سياسية؟

إن المغامرة الغامضة التي قام بها الأمير المصري سينوهت تخفي على الأرجح مهمة سياسية إلى سورية العليا. فهذا الهارب المزعوم، المدعي الهرب من غضب

11 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 458, 459.

الفرعون، يجتاز بلاد كنعان وسورية وأمورو ولا يستقر إلا في منطقة سورية قريبة من بابل وتابعة في حكمها إلى مصر، في الوقت الذي كان فيه حمورابي يقض مضاجع الفراعنة بسياسته التوسعية.

إن حفريات قطنة في سورية وعلى بعد بضعة كيلومترات من حمص إستخرجت لوحات مسمارية ومعبداً للآلهة السومرية نينرغال. «قطنة كانت مستعمرة للأكاديين منذ عهد سرجون القديم (٢٧٢٥ ـ ٢٦٧٠)، وللسومريين في زمن مملكة أور الثالثة (٢٣٥٠ ـ ٢٢٣٧)، وللأموريين أيام حمورابي (٢٠٠٣ ـ ١٩٦١)، وإن الثروات المكرسة لنينرغال تشهد على أهمية تلك المؤسسات (المعبد والمعسكر). ولكن وفي معبد قطنة فهناك أبو الهول يحمل صورة الأميرة إيتا إبنة أمنمهت الثاني (١٩٣٨ ـ ١٩٠٧) وهو نذر على ما يبدو مقدم إلى الالهة السومرية (حوالي العام ١٩٠٠)... إن فراعنة الأمبراطورية الوسطى كانوا إذن أوصياء، إن لم يكن أسياد الشاطىء الفينيقي وما وراءه من بلاد داخلية (منطقة شمال سورية)... إن هذا ليفسر العديد من وجوه مغامرات سينوهت حول العلاقات التجارية والسياسية التي تربط مصر وريزينو شرق بيبلوس»[١٢]. وهذه الخاتمة لموريه تجعل من الممكن أكثر، إضفاء طابع سياسي على دور سينوهت ومهمته والمقيم شمال قطنة قرب حدود بلاد ما بين النهرين.

ب ـ عمل عسكري مصري ضد ريزينو

وبدءاً من العام ١٩٠٠ بدأت السلالة الثانية عشرة إعطاء مؤشرات إعياء وإنحطاط. ولم يعد لملوكها قوة ونشاط أجدادهم. وعلى غرار كل المرات في مثل هذه الظروف فإن القبائل البدوية المتنقلة في الصحراء العربية بدأت تدخل بمجموعات صغيرة إلى دلتا النيل.

من المحتمل أن يكون سنوسرت الثالث (١٨٨٧ ـ ١٨٥٠) قام بإرسال موفدين عديدين إلى شيخ ريزينو حيث حل الأمير اللاجىء سينوهت قبل ذلك بقرن ونصف، بهدف التصدي لأية هجرات أضخم من هذه، والتي بدأت تحركاتها في سورية وسيناء تقلق الفراعنة. وفي حوالي العصر الذي نحن فيه (١٨٥٠) يبدو أن مشاعر مشايخ ريزينو قد تغيرت حيال مصر. وبعدما أخفقت البعثات الدبلوماسية كان لا بد من إرسال حملة عسكرية مصرية بقيادة الفرعون سنوسرت نفسه. كما أن الرهان

12 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 462 et 463.

الذي تنطوي عليه الحملة كان مهماً إلى درجة جعلت الفرعون نفسه يقود العمليات العسكرية. وأما الأعداء فهم من شعب الأمو والستيو أي من القبائل البدوية والجنود النظاميين ومن بينهم أو ربما على رأسهم كان يقف شيخ ريزينو.

وقد بدأت المعارك بين الجانبين في بلاد سكمان (المحاذية للصحراء ولسورية الشمالية ولريزينو). «وأما سيبيخو قائد جيش سنوسرت الثالث فيروي قصة الحملة التي قادها ملكه ضد المنتيو الآسيويين... وقد عاد الملك منتصراً إلى البلاط (في مصر). وأما سكمان فسحقت مع ريزينو البائسة. وللمرة الأولى نرى صفة العداوة تلصق بإسم ريزينو. لكن هذا النصر لم يدم طويلاً: لأن سيبيخو الذي كان يقود مؤخرة الجيش المصري، أضطر في طريق العودة أن يواجه مع قواته ويحارب بنفسه ضد الأمو. ويقول هذا القائد: لم أوقف المعركة... ولم أُدر ظهري أبداً للأمو». وأما مأثرته هذه التي كوفىء عليها بأوسمة الشرف فتتلخص على ما يبدو في أنه لم يهرب؛ إذ أن الجيش المصري كان يتعرض لضربات منهكة على مؤخرته»[13].

وابتداء من العام ١٨٥٠ أضحت العداوة بين مصر وسورية الشمالية شبه دائمة. «ومع نهاية عهد السلالة الثانية عشرة أصبحت حالة الحرب مع آمو منطقة ريزينو مادة يتناولها الفن الرسمي... (وفي حوالي العام ١٨٠٤) عاد قائد مصري وهو يحمل إلى ملكه «جزيات شعب المنتيو عابراً الأودية الغامضة والبلدان البعيدة والتي كانت إلى ذلك الحين مجهولة». غير أن الأمور ما لبثت أن ساءت تحت حكم السلالة الثالثة عشرة»[14].

13 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 464.
14 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 464.